الحجاج بن يوسف الثقفى

«يا أهل الكوفة:

إنى لأرى أبصارا طامحة، وأعناقا متطاولة، ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإنى لصاحبها.

وكأنى أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحىَّ»

الحجاج بن يوسف

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت شخصية الحجاج بن يوسف الثقفى شخصية مولعة بسفك الدماء، ومع شدته كان فصيحا بليغا، استطاع بذكائه وقوة شخصيته ودهائه أن يدعم ملك بنى أمية، وكانت الناس تخشاه أكثر مما تخشى الخليفة نفسه وهو مع كل قسوته كانت له إيجابيات هائلة فى التوسع فى الفتوحات الإسلامية، ووصل الإسلام إلى الهند على يد أحد أقاربه محمد بن القاسم.

ولا شك أن الحجاج بن يوسف الثقفى تأثر بالمناخ العام الذى نشأ فيه، فقد كان الصراع على أشده بين البيت الهاشمى والبيت الأموى، واستطاع معاوية بن أبى سفيان أن يمسك بخيوط الحكم فى يده بعد اغتيال الإمام على بن أبى طالب وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة له.

وإذا كان معظم المسلمين كانوا يرون أن الخلافة أغتصبها بنو أمية، وإنهم قد ثبتوا حكمهم بالقوة مرات، وباللين والدهاء أحيانا كثيرة، ولكن الحجاج كان يرى أن الأمويين أصحاب كفاية فى الحكم، وأنهم أولى أن يسوسوا الناس.

وقد ضاق الناس به وبقسوته ذرعا، غير أن خلفاء بنى أمية، عبد الملك بن مروان وابنه الوليد عبد الملك كانوا يرون فيه المدافع الأول عن توطيد سلطانهم فمكنوا له فى الأرض، كما لم يمكن لأحد مثله.

ولم يعبأ الحجاج كثيرا بالانتقادات التى وجهت إليه، فما يهمه كان رضاء الخلفاء عنه، أما الناس فلم يعبأ بهم ولا

بآرائهم فيه، حتى أن الحسن البصرى وهو من فى الصالحين من التابعين قال له يوما:

يا أخبث الأخبثين وأفسق الفاسقين، أما أهل السماء فمقتوك، وأن أهل الأرض فغروك، أبى الله تعالى للميثاق الذى أخذه على أهل العلم ليبينه للناس ولا يكتمونه.

كان الحجاج حريصا كل الحرص على أن يرضى عنه الوالى الحالى على العرش، عبد الملك بن مروان، وابن الوليد من بعده لأنهما هما اللذين يستمد شرعية حكم الناس منهما، وبهذه الشرعية حكم واستبد ولا يعرف العدل، لأنه لم يعرف لغة لإخضاع الناس سوى السيف والسوط وقطع الرقاب.

وقد كان الحجاج من قبيلة ثقيف بالطائف، وقد ولد على أرجح الأقوال عام ٤١ هـ.

ووالد الحجاج هو يوسف بن الحكم، وكان كما يقول عنه ابن خلدون كان تقيا، على جانب من العلم والفضل والشرف، وأنه كان يعلم أولاده القرآن الكريم وأصول الدين.

وكان ليوسف هذا بجانب الحجاج الابن الأكبر واسمه محمد، وبنت اسمها زينب.

وأم محمد، هى (الفارعة بنت صمام بن عروة بن مسعود الثقفى)، وكان عروة بن مسعود هذا جد الحجاج لأمه – أول شهيد مسلم فى الطائف ولكن لماذا أصبح الحجاج بهذه الصورة من القسوة رغم نشأته التى رباه عليها والده، ورغم

أن جده لأمه هو أول شهداء الإسلام فى الطائف.

ربما الذى كون هذه الشخصية طموحه الشديد للسلطة فيما بعد عندما أتاحت له الظروف ذلك فى ظل الدولة الأموية.

وربما لأن الجو العام الذى نشأ فيه، والصراع السياسى الدائر على الساحة منذ مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان مظلوما، هو الذى جعله بهذه الصورة عندما انغمس فى الحياة السياسية وأراد أن يكون له دور فيه..!

وقد تنبأ عثمان رضى الله عنه بما سوف يحدث فى المجتمع الإسلامى عندما أطلت الفتنة برأسها فقد قال عثمان للثائرين عليه:

فوالله لئن قتلتمونى لا تحجون بعدى ولا تصلون جميعا بعدى أبدا ولا تقاتلون بعدى عددا جميعا أبدا.

وعندما قتل عثمان رضى الله عنه مظلوما، قال أصحابه: لقد كنتم تحلبونها لبنا فلن تحلبوها منذ اليوم إلا دما.

ولكن لماذا حاول البعض تشويه شخصية الحجاج بن يوسف الثقفى؟

هل لأنه من ثقيف، وموقف ثقيف من الإسلام ونبى الإسلام ﷺ معروف؟

– أم لشخصية الحجاج نفسه وما انطوت عليه نفسه من قسوة وصرامة وعنف؟!

أم هى السياسة وما فيها من أهواء وأحقاد؟

أم لكل هذه الأسباب كانت صورة الحجاج بعيدة عن عواطف جمهور الناس، حتى أنهم حاكوا الكثير من الأساطير حول شخصيته، وبلغ من كراهية البعض له، من ذلك أن خصومه كانوا يطلقون عليه ابن التمنية!!

لماذا ؟

يقول لنا الدكتور محمود متولى إن « البلاذرى» يذكر أن والدة الحجاج تمنت وهى عند المغيرة بن شعبة شرب الخمر والالتقاء بنصر بن الحجاج – الذى كان يوصف بأنه أجمل شباب المدينة مما أضطر عمر بن الخطاب الى نفيه إلى البصرة بعد أن افتتنت به بعض النساء، وسمع الفارعة وهى تنشد فى خدرها:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها

أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

وقد استغل خصوم الحجاج بن يوسف هذه الحكاية، فكانوا يدعونه بابن التمنية!

وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم أنها تلحق بجدة الحجاج، فإنها ولا شك كانت عقدة نفسية حكمت سلوكيات الحجاج قبل الكثير من البشر حاول أن يمحوها بأى ثمن.

وتكاد المصادر تجمع على أن الحجاج لم يكن جميل الشكل، بل كان دميم الصورة، وقد ورد فى المصادر أنه كان صغير الجثة، حمش الساقين، متقوس الكاعرتين، خشن العينين،

دقيق الصوت أكتم الحلق، ويقال إن رأسه كان كبيرا مستطيلا كأنه غرس بين كتفيه.

ولا شك أنه تأثر أيضا بشكله الخلقى، لأن ذلك جعله لقمة سائغة لأعدائه وهجاته، وكل ذلك أوجد فيه استعدادا للقسوة والعنف، وذلك كنوع من تغطية النقص الذى كان يحسه لعدم حسن هيئته، الأمر الذى ميز شخصيته بالميل الى الشدة، وقوة البأس والتهجم حتى قيل إن الحجاج كان لا يضحك إلا نادرا.

ويروى لنا الدكتور محمود متولى فى دراسته عن الحجاج بن يوسف ما رواه المسعودى فى كتابه مروج الذهب، أن الحجاج ولد مشوها لا دبر له فثقب عن دبره ومثل هذا القول لا يستبعد خاصة وأنه يحدث فى حالات نادرة لحديثى الولادة.

غير أن المسعودى يمضى فى روايته بعيدا محاولا أن يبرر بها سبب ولع الحجاج بسفك الدماء على حد تعبيره فيقول: إن الحجاج بعد ولادته أبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها، فأعياهم أمره، وأنه يقال أن الشيطان يصورهم لهم فى صورة الحارث بن كلده فقال: اذبحوا جديا أسود وأدلقوه فى دمه، فاذا كان فى اليوم الثانى فافعلوا به كذلك فإذا كان فى اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا أسود وادلقوه دمه ثم اذبحوا له أسود سالخا فادلقوه دمه وأطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع».

وتنتهى الرواية بالقول بأنهم فعلوا به ذلك فكان لا يصبر على سفك الدماء.

ويعلق الدكتور متولى على هذه الحكاية بقوله:

«ولا شك أنها أسطورة مثل التى لحقت مولد جنكيز خان بأنه ولد وفى قبضته بقعة من الدم المتجمد وكل طاغية فى التاريخ سيق حوله البعض من هذه الأساطير».

وهكذا ولد الحجاج وأبى رواة الأساطير إلا أن يولغوه فى الدماء حتى الثمالة، وقديما قيل: «وما آفة الأخبار إلا رواتها».

ومهما يكن من شىء فقد كان الحجاج بن يوسف طاغية بكل المقاييس، فمن خلال رحلة عمره التى قضاها فى خدمة الدولة الأموية لم يعرف عنه إلا الطغيان، وأخذ الناس بالشبهات، وإعمال السيف فى كل من تسول له نفسه الخروج على حكم الأمويين أو الاعتراض على سلوكياته شخصيا، فسفك ما سفك من دماء، وأراق ما أراق من دماء الأبرياء، ولم ينج من سوطه أو سيفه أو حدة لسانه الصالحون من الناس، فلم يردعه عن ذلك رادع لا من تقوى ولا من دين حتى الناس لايطيقون سيرته، بل إن كتب التراث تحكى الكثير من الطرائف عنه سواء أصحت هذه الحكايات أم كانت من اختراع الناس، ومنها أنه كان يسبح فى مياه الخلية، وأنه أوشك على الغرق، وأنقذه أحد المارة، فلما سأل هذا الذى أنقذه هل يعرفه، قال له الرجل:

أعرفك، إنك الحجاج بن يوسف. فسأله الحجاج عن الجائزة التى يطلبها بسبب إنقاذ حياته؟

قال له الرجل: ألا تخبر أحدا بأننى أنقذت حياتك حتى لا يدعو الناس علىَّ!!

ظل الحجاج بن يوسف الثقفى موضع حديث الناس منذ ولادته فى الطائف عام ٤١ هـ، أى العام الذى تولى فيه معاوية بن أبى سفيان الخلافة إلى اليوم لما فى شخصيته من قسوة وظلم وجبروت، ولأنه كان فى نفس الوقت من أفصح خطباء العرب، فأخذ الناس يرددون بعض كلماته فى ثنايا أحاديثهم عندما يذكر الطغاة فى كل العصور.

ولكن ما هو المسرح السياسى الذى مهد لظهور الحجاج بن يوسف؟

لقد استطاع معاوية بن أبى سفيان أن يمهد الأمر لابنه يزيد لتولى الخلافة من بعده، وبعد أربعة أعوام قضاها يزيد خليفة للمسلمين مات الرجل، بعد أن ترك على صفحات التاريخ وصمة لم تمحوها الأيام، عندما استشهد الإمام الحسين على أرض كربلاء، واستشهد معه آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفه ابنة معاوية الثانى الذى كان زاهدا فى الحكم، بل زاهدا فى الدنيا كلها، فقد هذا الشاب الورع ليقول للناس كلها، فقد وقف هذا الشاب الورع ليقوا للناس «إن جدى معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسابقته فى الإسلام، وهو على بن أبى طالب، ثم تقلد أبى – يزيد – الأمر من بعده، فكان غير أهل له، ركب هواه وأخلفه

الأمل! إن من أعظم الأمور علينا، علمنا بسوء منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله ﷺ، وأباح الحرم، وضرب الكعبة» وما أنا المتقلد أمركم، ولا المتحمل تبعاتكم، فاختاروا لأنفسكم» ! !

ورفض معاوية الثانى الخلافة، وظل فى بيته حتى رحل إلى أكرم جوار بعد أربعة أشهر من موت أبيه فى قول، وبعد أربعين يوما فى قول آخر .

وفى ظل هذه الأوضاع السياسية كادت تتمزق الدولة الأموية، وأن تزول من الوجود، ويتم الأمر لعبد الله بن الزبير، الذى نازع الأمويين الخلافة بعد استشهاد الإمام الحسين فى كربلاء..

واستطاع عبد الله بن الزبير أن يحكم قبضته على الحجاز، بعد أن أعلن نفسه خليفة للمسلمين سنة (٦٤ هـ) فى مكة، ومن هنا فقد بايعه أهل العراق، ومصر. إلا أن مروان بن الحكم بويع بالخلافة فى الشام سنة (٦٤ هـ) لأنه كان أكبر الأمويين سنا، وقد استطاع مروان بن الحكم أن ينتصر على أنصار عبد الله بن الزبير فى (مرج راهط)، وبذلك مهد الطريق لاستعادة السيطرة الأموية على أمور الحكم، وخاصة بعد أن استعاد مصر وعين ابنه عبد العزيز وليا عليها ومات بعد عشرة شهور من حكمه سنة (٦٥ هـ) وقبل أن يموت كان قد عهد بالخلافة لابنه عبد الملك بن مروان، وكان فقيها تتلمذ فى (المدينة) التى ولد بها على يد عدد كبار الصحابة، وكان عبد الملك مع فقهه قد اشترك فى فتوحات الشمال الإفريقى فى عهد معاوية بن أبى سفيان.

وقد تولى الخلافة بعد أبيه، ووجد أن الدولة الإسلامية ممزقة، فقد خرج على الخلافة عبد الله بن الزبير التى كانت تدين له بالولاء الحجاز، والعراق، وبلاد الفرس، وكان يديرها عبد الله بن الزبير من مكة المكرمة، وهو كخليفة فخضع لحكمه الشام ومصر وكان مقر الخلافة فى دمشق، ورأى عبد الملك أن الشيعة والخوارج، تتحدى الخلافة وكان عليه أن يوحد دولة الخلافة تحت راية واحدة ومن هنا عده المؤرخون المؤسس الثانى للدولة الأموية بعد معاوية بن أبى سفيان.

★★★

فى هذا الجو ظهر الحجاج بن يوسف الثقفي، كخادم مطيع لدولة الأموية، ولعبد الملك بن مروان بصفة خاصة، ومن بعده ابنه الوليد بن عبد الملك.

ويروى الرواة عن الحجاج بن يوسف أنه كان فى الخامسة والعشرين من عمره عندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان، وهو بلا شك من أعظم خلفاء بنى أمية، لثقافته الرفيعة ولحرصه على توحيد دولة الخلافة، وحرصه أيضا على قيام اقتصاد إسلامى رفيع المستوى بتعريب النقود ومتابعته أيضا لأعمال ولايته على شتى الأقطار الإسلامية، وعنايته بالدواوين والبريد ليكون على صلة بكل ولاته وتشديد الرقابة عليهم.

★★★

لقد وفد الحجاج مع والده إلى الشام وحاول أن يصل إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان عن طريق الوزير روح بن زنباع الجذامى فألحقه الوزير بشرطته.

وكانت هذه هى البداية لانطلاق الحجاج نحو التألق والظهور السياسى والعسكرى فى عهد عبد الملك بن مروان ومن بعده ابنه الوليد بن عبد الملك.

يقول أنور أحمد وهو يتابع صعود الحجاج فى سلم السلطة: روى المؤرخون أن «عبد الملك بن مروان « أراد أن يخرج لقتال «زفر بن الحارث» الذى كان قد تمرد على حكم بنى أمية فلما مضى بجيشه فى الطريق لاحظ من عساكره تخاذلا وعصيانا إذا كانوا لاينزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله، وشكا الخليفة ذلك إلى «روح بن زنباع» فقال له:

– يا أمير المؤمنين إن فى شرطتى رجلا يقال له الحجاج بن يوسف ولاه أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله.

ففعل عبد الملك بن مروان فكان لايقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أتباع «روح بن زنباع» فوقف الحجاج عليهم يوما وقد رحل الناس وهم على الطعام يأكلون فقال لهم:

– ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟

– فقالوا :

– انزل فكل معنا يا ابن اللخناء ! !

فقال الحجاج :

– هيهات، ذهب ما هنالك .

ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر، وأمر بخيامهم فأحرقت، فدخل «روح بن زنباع» على عبد الملك باكيا شاكيا يقول:

– إن الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى وأحرق فساطيطى .

فاستدعى الخليفة الحجاج وسأله عما فعل فقال الحجاج :

– ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين.

قال الخليفة :

– ومن فعله؟

قال الحجاج :

أنت والله فعلت، إنما يدى يدك وسوطى سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين، وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له».

وقد أعجبت هذه الجرأة «عبد الملك بن مروان» فعوض وزيره عن خسائره وزاد تقديره للحجاج.

فلما أراد الخروج إلى العراق لمحاربة «مصعب بن الزبير» جعل يستنصر أهل الشام فيتقاتلون عن الخروج للحرب.

فقال له الحجاج:

– سلطنى عليهم فوالله لأخرجنهم معك.

فسلط عليهم فكان الحجاج لا يمر على باب رجل قد تخلف عن الخروج إلا أحرق عليه داره.

فلما رأى أهل الشام ذلك خرجوا وسار بهم «عبد الملك» بعد أن ولى الحجاج قيادة قسم من الجيش وأخضع العراق وقتل مصعب بن الزبير.

★★★

من هنا بدأ نجم الحجاج يتألق فى سماء الحياة السياسية والعسكرية فى عصر عبد الملك بن مروان، وبدأ يعرض خدماته لتوطيد دعائم الدولة الأموية ورأى فيه عبد الملك بن مروان السيف الذى يطيح برؤوس أعدائه، وأن هذا الرجل بذكائه الحاد وشجاعته التى تصل إلى حد القسوة والظلم والجبروت، من الممكن أن يمهد الطريق أمام استقرار الحكم الأموي، وأنه بهذه اليد إلى يديه يمكنه أن يسيطر على مختلف أرجاء العالم الإسلامى الذى حاول أن ينسلخ عن الخلافة، ويكون بعضهم كعبد الله بن الزبير حاكما ينازع الخلافة الأموية، ويحاول أن يطويها تحت حكمه، ويضع نهاية لها، وتتوحد الخلافة تحت لوائه، كما أن عبد الملك أراد أن يتخذ من الحجاج السوط الذى يلهب به ظهور معارضيه من الخوارج والشيعة، وبدأ اسم الحجاج يتألق ويتردد فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى

كرجل المهمات الصعبة، وأنه السوط الذى يلهب الخارجين على الدولة أشد أنواع العقاب والسيف الذى يطيح بأعداء الأمويين.

★★★

وضع الحجاج بن يوسف كل مواهبه الدموية فى خدمة الدولة الأموية، وتثبيت دعائمها، وفى نفس الوقت سعى أن يصبح أقوى رجال هذه الدولة، حتى أن الناس كانت تهابه أكثر مما تهاب الخلفاء أنفسهم؛ لأنه لم يعرف يومًا شيئًا اسمه الرحمة، أو يعرف حقوق الناس، فاستوى أمامه الصالح والطالح، والسيف عنده فوق رقاب الجميع!

وكانت أصعب الأدوار الذى قام بها، ولم ينسها له التاريخ عبر كل العصور، هو تصديه لعبد الله بن الزبير، وضربه فى أثناء حصاره لمكة المكرمة والكعبة المشرفة بالمجانيق حتى تصدعت دون أن تهتز منه شعرة من خشية الله، واحترام بيته الحرام.

لقد قال للخليفة عبد الملك بن مروان عند الحديث عن عبد الله بن الزبير، واستقلاله بالحجار عن الدولة الأموية:

لقد رأيتنى فى المنام أمسك بعبد الله بن الزبير، ثم أقوم بسلخه، فابعثنى إليه ودلنى أن أقتاله.

ووافق الخليفة على ذلك وسار بقواته لحصار مكة، وحاصرها بالفعل، وأخذ يضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق. حتى يخضع عبد الله بن الزبير وهو من هو فى شجاعته ومواقفه البطولية فى الإسلام، وفى الفتوحات الإسلامية، إنه ابن حوارى رسول

الله ﷺ الزبير بن العوام، وأمه السيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق، وخالته عائشة أم المؤمنين، وكان الناس يحبونه لورعه وتقواه وشجاعته وكانت الناس تردد كلماته الراقية لأخيه مصعب بن عمير الذى قتل فى العراق عندما قال فيما قال:

«إنا والله ما نموت على مضاجعنا، ولكن قعصا بالرماح، وموتا تحت ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام، ألا إنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لايزول سلطانه، ولا يبيد ملكه فإن تقبل الدنيا علي، لم آخذها أخذ الأشر البطر، وأن تدبر عنى لم أبك بكاء الخرق المهين، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم».

★★★

قد حاصر الحجاج مكة خمسين ليلة، ولم يجد عبد الله بن الزبير نفسه إلا وقد هزم أصحابه، وعرف أنه لا محالة سيكون مع الشهداء، وقد شجعته أمه أسماء بنت أبى بكر على المقاومة لآخر لحظة من عمره.

لقد سأل أمه فى هذا الموقف الصعب والموت محلق على الرؤوس:

خذلنى الناس حتى ولدى وأهلي، فلم يبق إلا اليسير ممن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟

تجيبه الأم العظيمة:

«أنت والله يابنى أعلم بنفسك وإن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت كنت على حق، وإذا وهن أصحابى ضعفت عزيمتي، فهذا ليس من فعل الأحرار ولا أهل الدين.

كم خلودك فى الدنيا؟، القتل أحسن ما ينزل بك يابن الزبير . فوالله لضربة بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة سوط فى ذل .

فقال لها :

– إنى أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى .

قالت له:

– يابنى إن الشاة لا يضرها السلخ بعد ذبحها .

وتقدم إليها عبد الله بن الزبير وقبل رأسها، وقاتل حتى قتل..

وصلب الحجاج جثة هذا التقى الورع عبد الله بن الزبير، وعندما مرت أمامه أسماء قالت:

«آما آن لهذا الفارس أن يترجل».

ويأتى الخبر إلى الخليفة فيأمر الحجاج بتسليم الجثة إلى أمه، وكان عبد الله بن الزبير يناهز من العمر اثنتين وسبعين سنة، ولم يرحم الحجاج شيخوخته، ودامت خلافته تسع سنين.

ولم يخجل هذا الحجاج أن يقول لأسماء بنت الصديق عندما لقيها: كيف ترينني صنعت بابنك؟ قال له هذه الأم العظيمة وقد أوهنتها السن:

«أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك».

★★★

ويروى الرواة أن الحجاج أرسل إليه الخليفة رسالة يقول له فيها: «إنى حزت الحجاز بشمالي، وبقيت يمينى فارغة!!»

وقرأ الخليفة الرسالة، وكان والى العراق بشر بن مروان قد مات، فأمر الخليفة الحجاج أن يتولى أمر العراق!

وذهب الحجاج بن يوسف إلى العراق تسبقه شهرته فى سفك الدماء، وكانت العراق يومها مليئة بالفتن، والحروب، والدسائس والمؤامرات، وقرر الحجاج أن يقضى على كل الخارجين عن سلطان الخلافة، واستعان (بالمهلب) فقاتل الأزارقة، وقام بحروب طويلة فى الكوفة والبصرة، وانتهت بانتصاره فى موقعة «دير الجماجم» وهذه الموقعة استمرت مائة يوم.

★★★

كان عام ٧٥ هـ من الأعوام الهامة فى حياة الحجاج، إنه العام الذى صدر فيه الأمر بتوليه أمر العراق، والتاريخ يروى لنا كيف توجه إلى مسجد الكوفة، وصعد المنبر وهو يغطى وجهه، ولم يعرفه الناس أول الأمر، وتساءلوا فيما بينهم

وبين أنفسهم عن هذا الذى صعد المنبر وأطال الصمت، ولكنه سرعان ما كشف عن وجهه، وأخذ يهدد الناس، ويروع أحلامهم، ويثير فى أعماقهم الخوف..

لقد قال لهم:

«أنا ابن جلا وطلاع المنايا متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة :

أننى أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها . وكأننى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي».

وقال:

هذا أوان الشد فاشتدى زيم (اسم فرسه)، قد لفها الليل بسواق حطم ليس براعى إبل ولا غنم ولا بحزار على ظهر وضم (وضم خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم)! «

وبعد أن استشهد بالعديد من أبيات الشعر الذى يتوعد فيها الناس. ويواصل خطابه الذى يتوعد فيه أهل العراق بما سينالونه من عقاب على يديه مالم يلزموا الطاعة، وقال فيما قال فى هذه الخطبة الشهيرة:

«والله لأحزمنكم حزم السلمة (شجرة كثيرة الشوك) ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، فأنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم إله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

وقال منهيا خطبته :

- إن أمير المؤمنين أمرنى أن أعطيكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة العدو مع (المهلب بن أبى صفرة) وأنا أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.

★★★

لقد خشى منه الناس فى العراق بعد هذه الخطبة، وبعدما شاهدوه وماسمعوا عن شدته وقسوته فالرجل الذى ضرب الكعبة بالمجانيق، وقطع رأس عبد الله بن الزبير، ولم يرع حرمة للبيت العتيق، ولا رعى نسب وشخصية عبد الله بن الزبير، فى استطاعته أن يفعل بالناس ما يريد، فهو لا يناقش أحدًا، ولا يحاور أحدًا، ولا يجرؤ أحد أن يناقشه فى أى أمر من الأمور، كما أنه هو الآخر لا يريد مشورة أحد إنما يريد أن يكون كلامه أوامر، وعلى الرعية السمع والطاعة، ومن لم يجد السمع والطاعة عليه أن يلاقى ما يلاقى من عذاب، وعليه أن يتوجع تحت وقع السياط، أو يدفن بعد قطع الرقاب:

ومن هذا الذى يتجرأ على رجل فلسفته فى الحكم قد عبر عنها بقوله :

وقسمًا بالله لأخذن الولى بذنب مولاه، والمقيم بذنب الظاعن، والمطيع بذنب العاصي، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول له:

انج يا سعد : فقد هلك سعيد !!

★★★

ولم ينجُ من مؤامراته حتى الرجل الورع العظيم الذى تولى الخلافة فيما بعد، وكان مصباحًا أضاء ظلام الحياة، عمر بن عبد العزيز

★★★

كان الحجاج بن يوسف شأنه شأن كل الطغاة لا يأبه بأية قيمة من القيم، أو فضيلة من الفضائل، تحققت أحلامه وطموحاته حتى أنه أخذ يكيد لعمر بن عبد العزيز نفسه عندما كان واليًا من قبل الوليد بن عبد الملك.

كان عمر بن عبد العزيز يقول عن نفسه:

إن لى نفسًا تواقة، لا تنال شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، وصاحب النفس التواقة هذا كان شديد الورع، وكان فى كل تصرفاته وسلوكياته مثال الإنسان الذى ينشد المثل العليا، وقيم الإسلام وفضائله، وكان قبل أن يلى الخلافة يلبس أجمل الثياب، ويتعطر بأجمل العطور، وله مشية يمتاز بها حتى كان الناس يطلقون عليها المشية العمرية، واختاره الوليد بن عبد الله واليا على المدينة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره.

وكان عمر بن عبد العزيز لا يطيق سماع اسم الحجاج، لما انطبع فى نفسه من قسوته وطغيانه حتى أنه عندما انتدب الخليفة الحجاج لينوب عنه فى موسم الحج، طلب عمر بن عبد العزيز من الخليفة ألا يمر الحجاج بالمدينة، واستجاب الخليفة لهذا الطلب، وكتب للحجاج يقول:

«إن عمر بن عبد العزيز كتب إلىَّ يستعصينى من ممرك عليه بالمدينة، فلا عليه ألا تمر بمن يكرهك، فنح نفسك عن المدينة».

ولم ينس الحجاج هذا الموقف من عمر بن عبد العزيز، طوال حياته. لقد كان هذا هو موقف عمر بن عبد العزيز من الحجاج وسلوكياته التى تتسم بالطغيان، رغم أنه يعرف تمام العلم المنزلة الكبيرة التى يتمتع بها الحجاج عند الخليفة الوليد بن عبد الملك، ومن هنا فقد كان الحجاج يضمر الكراهية لعمر بن عبد العزيز، الذى كان الناس يرون فى ظلال ولايته الملجأ والملاذ، من عسف وطغيان الولاة الآخرين للدولة الأموية، وكان عمر بن عبد العزيز رغم احتفائه بملبسه ومظهره، وحبه وتذوقه للغناء الهادف، قبل أن يلى الخلافة، حتى أن الرواة يقولون إن المغنى الشهير (ابن سريج) قد غنى أغنية من ألحان عمر بن عبد العزيز والتى مطلعها:

علق القلب سعادا

عادت القلب فعادى

كلما عوتب فيها

أو نُهى عنها تمادي

وهو مشغوف بسعدي

قد عصا فيها وزادا

عمر بن عبد العزيز هذا المتفتح على كل ما فى الحياة من معانى الخير والجمال، كان يمقت طاغية بنى أمية الحجاج، وكان يمقت الفساد الذى ساد فى المجتمع، والترف الذى حل فيه، ولم تشغله أمور الولاية عن التعبد، وإرساء دعائم العدل، وكان الحجاج يريد أن يرد على الإهانة التى وجهها إليه عمر بن عبد العزيز عندما طلب من الخليفة ألا يمر الحجاج بالمدينة عند ذهابه إلى مكة فى موسم الحج، والحجاج يعلم أن عمر بن عبد العزيز أحد أمراء البيت الحاكم وابن عم الخليفة وزوج أخته، ومع ذلك قرر أن يدبر مؤامرة ضد عمر فقد اتهمه عند الخليفة بأنه يأوى الخارجين على الدولة الأموية، حتى أن الخليفة استدعاه يوما، بعد أن علم أن هناك فى ولاية عمر من يقوم بتجريح الحكم الأموي، ويسأله الخليفة. ما تقول فيمن يسب الخلفاء، أيقتل؟

ولم يرد عمر على هذا التساؤل، غير أن الخليفة عاد، وهو يكرر تساؤله:

– أيقتل؟

قال عمر بن عبد العزيز:

– هل نقتل نفسًا بغير حق يا أمير المؤمنين؟

– إنه سب الخلفاء، وانتهك حرماتهم.

قال عمر:

إذن يعاقب بما انتهك للخلفاء من حرمة ولكن لا يقتل. وغضب الخليفة وأشاح عنه بوجهه.

وهنا استطاع الحجاج أن يصطاد فى الماء العكر كما يقولون، وزاد من وشاياته، والحديث عن إيواء عمر بن عبد العزيز لمن يهربون عنده هربا من قصاص الحجاج، وظل على هذا الأمر، حتى ضاق الوليد بن عبد الملك بعمر وأمر بعزله!!

وقد نعم الناس بحكم عمر بن عبد العزيز كوالى للمدينة والحجاز مدة ستة أعوام، ورجع عمر بن عبد العزيز إلى الشام. وعن هذا الحجاج بن يوسف قال عمر:

«لو جاءت كل أمة بخطاياها يوم القيامة، وجئنا نحن بالحجاج وحده لرجحناها جميعا». وكان يقول وهو يرى الفساد يطل بأنيابه القاتلة على المجتمع:

الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر ويزيد بن أبى مسلم بالمغرب؟ امتلأت الأرض والله جورًا، هذا هو عمر بن عبد العزيز عدو الحجاج بن يوسف الثقفى .

وهذا الإنسان الذى كان الحجاج سببا من أسباب بعده عن الحكم والحياة السياسية فى عصر الوليد بن عبد الملك. عمر هذا الذى يعرف الحجاج كم كان عليه من فضائل وشجاعة وصلابة وحب للخير، ومع ذلك لم يتركه فى حال سبيله، بل هاجمه ووشى به رغم أنه يعرف أنه أمير أموى محبوب

من الناس، ومن الخلفاء الأمويين أيضًا.

وهذا ما يظهر كم كان للحجاج من مواهب نادرة فى الغدر، وإعمال السيف، وقتل الأبرياء، والتآمر حتى على الشرفاء من أمثال عمر بن عبد العزيز، الذى رسم له أحدهم (محمد بن كعب القرظي) هذه الصورة الرائعة عندما تولى الخلافة، وأصبح هو خليفة المسلمين:

دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد استخلافه، وقد نحل جسمه، وعفا شعره، وتغير لونه، وكان عهدنا به فى المدينة وهو أمير عليها حسن الجسم ممتلئ البضعة فجعلت أنظر إليه، لا أصرف بصرى عنه، فقال لى :

– ياابن كعب، مالك تنظر إلىَّ نظرًا ما كنت تنظره إلى من قبل ؟

فقلت :

– لعجبى يا أمير المؤمنين.

قال :

– وفيما عجبك؟

قلت:

مما يخلو من جسمك، وقفا من شعرك وتغير من لونك، أين ذلك من اللون النضير .، والشعر الحسن والبدن الريان؟

فقال لي:

– إنك إذن لأشد عجبًا من أمري، وإنكارًا لى لو رأيتنى بعد ثلاث فى قبري، وقعت عيناى على وجنتي، وسكن الدود منخرى وفمى .

ثم راح يبكى ويبكي؟!

هذا الخليفة العظيم التى انطوت نفسه التواقة إلى الخير والجمال، وحب الناس، وإيثار ما عند الله على ما عند عبيد الله، كان فى نظر الحجاج متآمرًا على الدولة، لأنه يأوى الخارجين عليها، أو المطلوبين لقودهم من الحجاج بن يوسف الثقفي، أن يرى فى لؤلؤة العصر الأموى كله والذى أحبه الناس لدرجة تفوق التصور، كان لكل هذه الأسباب مكروهًا عند الحجاج، ولولا أن ابن عبد العزيز، كان أميرًا أمويًا، وقريبًا من قلوب وعقول الخلفاء الأمويين، لكان مصيره أبشع على يدى الحجاج.

لقد ظل الحجاج هو سيف الدولة الأموية طوال حكم عبد الملك وابن الوليد، كانا يريان فيه السوط الذى يلهب أجساد الخارجين عن نفوذهما، وكانا يرون فيه السيف الذى يحمى ملكهما العريض الذى امتد ليشمل ما بين الصين والأندلس بالشمال الإفريقى كله.

ومع ذلك فقد ضاق بطغيانه يومًا عبد الملك بن مروان وهمّ أن يخلعه، ولكنه تراجع خوفًا على الدولة الأموية، لأنه يرى فى الحجاج الدرع الواقى لها من الأخطار المحدقة بها، سواء من جانب الشيعة أو الخوارج، أو غيرهما ممن كانوا يتربصون بالحكم الأموى الدوائر..

ومع ذلك فقد روى الرواة فيما يروون عن هذه الفترة من الحكم، الذى تربع فيها الأمويون على عرش الخلافة، أن عبد الملك بن مروان ندم فى آخر أيامه وهو يعانى من مرض الموت.

وقال:

– ماذا سأقول يوم المساءلة عن أمر الحجاج؟!

★★★

كثيرًا ما ينسى الطاغية نفسه فيصور له ظلمه وجبروته أنه فوق الجميع، وأن على الناس أن يتصاغرون أمامه حتى لو كانوا أكثر منه تقوى وقربى من الله، فيودى به غروره ويرسم لنفسه نهاية ما كان يتصورها، وأمام هذه النهاية المفجعة لا يجد إلا وجع بكاء!

الذى يقرأ سيرة حياة الحجاج بن يوسف الثقفي، والقسوة التى كان يتمتع بها والطغيان الذى تمكن منه يخيل إليه أن هذا الرجل لم يكن يعرف أمور دينه ولم يتفقه فى أمور الشريعة، ولكن الحقيقة أن الرجل كان على علم بأمور الدين، بل كان والده هو الذى يحثه على حفظ القرآن الكريم والالتزام بالشريعة، ولكنه مع ذلك كان شديد التناقض مع نفسه.ورووا أن سليمان بن عبد الملك سأل عنه الوفود التى كانت تقدم إليه من العراق فقالوا:

– يا أمير المؤمنين إننا نخبرك عن عدو الله بعلم، كان يتزين تزين المومسة، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار فإذا نزل عمل عمل الفراعنة.

وكان خطيبًا من أعظم خطباء عصره، وكانت خطبه تتسم مع جزالة اللغة، بالوعيد والتهديد، حتى أنه كان يريد إخافة من يستمعون إليه، والإيحاء لهم بمدى بطشه وقوته.

وهذا الطاغية المستبد كانت خطبه الدينية تدل على فهمه الجيد للدين، فقد خطب مرة الجمعة وقال فى خطبته تلك:

- نعم امرؤ حاسب نفسه، امرؤ راقب ربه، امرؤ زود عمله، امرؤ فكر فيا يقرؤه غدًا فى صحيفته ويراه فى ميزانه، امرؤ كان عند همه آمرًا، وعند هواه زاجرًا، امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله، فإن قاده إلى حق تبعه وإن قاده إلى معصية الله كفه. أنا والله ما خلقنا للغناء، إنما خلقنا للبكاء، وإنما ننتقل من دار إلى دار.

كلام لا يصدر إلا عن إنسان على وعى بما جاء به الإسلام، وبما نهى عنه، ومع ذلك فالرجل الذى قال هذا الكلام هو نفسه رجل السيف والسوط الذى طالما سام الناس سوء العذاب!

★★★

لقد تجرأ سعيد بن جبير وهو التابعى الجليل عندما رأى ظلم الحجاج، فطالب الناس بوضع نهاية لظلمه، ونهاه عن الظلم، فاستدعى سعيداً ذات يوم، وهو يكظم غيظه، وأراد إهانته، ودار بينهما هذا الحوار.

سأله عن اسمه فقال : سعيد بن جبير .

الحجاج: أنت الشقى بن كسير؟

سعيد: أبى كان أعلم باسمى منك.

الحجاج: شقيت وشقى أبوك.

سعيد: الغيب يعلمه الله.

الحجاج: لابد إن بالدنيا نارًا تلظى.

سعيد: لو علمت أنك كذلك لاتخذتك إلها.

الحجاج: ما رأيك فى على بن أبى طالب أهو فى الجنة أو فى النار؟

سعيد: لو دخلتها وعلمت من فيها لعرفت أهلها ولكنى مازلت فى دار الفناء.

الحجاج: ما رأيك فى الخلفاء؟

سعيد: لست عليهم بوكيل.

الحجاج: أيهما أحب إليك؟

سعيد: أرضاهم لخالقى.

الحجاج: فأيهم أرضاهم لله؟

سعيد: علم ذلك عند من يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: لماذا لا تضحك كما نضحك؟

obeikandl.com

سعيد: وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين، والطين تأكله النار.

الحجاج: ولكنا نحن نضحك.

سعيد: لأن القلوب لم تستو بعد.

الحجاج: اختر لنفسك قتلة أقتلك بها؟!

سعيد: اختر أنت ياحجاج، فوالله لا تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

الحجاج: أتحب أن أعفو عنك؟

سعيد: إن كان العفو فمن الله.

الحجاج يأمر جنده أن يذهبوا به ليقتلوه، ويضحك سعيد فيسأله الحجاج عن سبب ضحكه فيقول له:

- لأنى عجبت من جرأتك على الله ومن حلم الله عليك.

ويأمر الحجاج بقتله فيتجه الرجل إلى القبلة، ويتجه إلى ربه قائلا:

- إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين.

فيأمر الحجاج جنوده أن يغيروا وجهه إلى غير القبلة.

فيقول الصحابى الجليل:

– فأينما تولوا فثم وجه الله.

ويأمر الحجاج أن يكبوه على وجهه.

فيقول سعيد:

«منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى».

فيقول لهم الحجاج: اذبحوه.

فيرد سعيد بن جبير:

أما أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

ثم رفع يديه إلى السماء وقال:

اللهم اقصم أجله، ولا تسلطه على أحد يقتله من بعدي.

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى بعد أن يورد هذا الحوار فى كتابه «الدعاء»:

«وصعدت دعوة سعيد إلى السماء فلقيت قبولا واستجابة من الله الواحد القهار، فلقد أصيب الحجاج بعد قتله لسعيد بن جبير بمرض عضال أفقده عقله، وصار كالذى يتخبطه الشيطان من المس، وكان كلما أفاق من مرضه قال بذعر: مالى ولسعيد بن جبير.

وبعد فترة قصيرة من قتل سعيد بن جبير مات الحجاج الثقفى شر موته، وتحققت دعوة سعيد فيه، فلم يسلطه الله على أحد يقتله من بعده، وصدق رسول ﷺ إذ يقول:

– ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين.

★★★

لقد انتهت حياة الحجاج بعد أن ظلم هذا التابعى الجليل هذا الظلم البين، وسخريته منه مع معرفته بمكانته بين الناس، وتقواه وحبه لربه، وتروى كتب التراث كيف أن هذا الطاغية خطب الناس يوما فقال لهم فيما قال: أيها الناس قد أصبحتم فى أجل منقوص، وعمل محفوظ، رب ساع لغيره، فالموت فى أعناقكم، والنار بين أيديكم، والجنة أمامكم فخذوا من أنفسكم، ومن غناكم لفقركم، ومما فى أيديكم لما بين أيديكم، فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن وكأن الأموات لم يكونوا أحياء، وكل ما ترونه فإنه ذاهب، هذه شمس عاد وثمود، وهذه الشمس الذى طلعت على الأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة، ثم طلعت على قبورهم!

أين الملوك الأولون؟ أين الجبابرة المتكبرون؟ المحاسب الله والصراط منصوب وجهنم تزفر وتتوقد، وأهل الجنة فى روضة ينعمون، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا».

هذه الخطبة الرائعة التى تدل على تمكنه وفهمه للعدالة كيف غابت عنه وهو يسوم الناس سوط عذاب؟

وهـذا الـكلام الـذى يتحـدث فيـه عـن الجنـة والنـار كيـف غابـت عنـه وهـو يضـرب الكعبـة بالمجانيـق؟! وهـذا الإيمـان الـذى تحـدث عنـه لم يتعـظ بمـا جـرى للأكاسـرة وقـوم عـاد وثمـود، لمـاذا لم يتخـذ هـو نفسـه العـبرة لنفسـه؟

★★★

ويبـدو أنـه نـدم فـى نهايـة حياتـه فقـد كتـب للوليـد بـن عبـد الملـك عندمـا حضرتـه الوفـاة:

– أما بعد .

فقـد كنـت أرعـى غنمـك، أحوطهـا حيـاط الناصح الشـفيق برعية مـولاه، فجـاء الأسـد فبطـش بالراعـي، ومـزق المرعـى كل ممـزق، وقـد نـزل بمـولاك مـا نـزل بأيـوب الصابـر، وأرجـو أن يكـون الجبـار أراد بعبـده غفرانًـا لخطاياه، وتكفيـرًا لمـا حمـل مـن ذنوبه.

★★★

و... طـوت الأيـام جـبروت الحجـاج، ولم يبـق لـه إلا أنـه أصبـح رمـزًا للتسـلط والطغيـان والتجـبر، ولكـن لاينسـى لـه أنـه كان وراء الفتوحـات الإسـلامية فقـد شـجع عليهـا حتـى امتـدت إلى نهـر السـند، ومـا وراء النهـر حتـى بخـارى وسمرقنـد.